كتاب الأعوام الحاسمة

المفيلسوف الألماني أوزفالد شبنجلر

ترجمة الأستاذ على بك حسن الحاكم

المراقب العام لمنطقة التعليم بالمنصورة

هذا كتاب نقله الأستاذ على بك حسن الحاكم المراقب العام لمنطقة التعليم بالمنصورة عن اللغة الألمانية إلى اللغة العربية وهو آخر كتاب أنتجه الفيلسوف الألماني شبنجلر قبل وفاته، وضعه سنة ١٩٣٣ وتوفى سنة ١٩٣٦ قبل اشتعال نار الحرب العالمية الماضية بثلاثة أعوام وتناول فيه قضايا العالم ومشكلاته وحضارته، قدمها على ضوء الفلسفة الواقعية وصور الحاضر على أساس المشاهدة، وتنبأ بالمستقبل قياساً على الماضي. وعرض ذلك كله على الناس في وضع جلي واضح يفسر كل غامض، ويجلو كل مبهم. ويوضح نظراته في فكرة شاملة تنتظم كل مظاهر الحضارة وتختزلها في حيز محدود لا خفاء فيه ولا غموض

وقد ضم الأستاذ الحاكم بك إلى المكتبة العربية بهذا العمل الجليل كتاباً يعتبر ثروة من أنفس وأثمن ثروات الفكر الإنساني لا توزن بذهب الأرض، ولا تقوم بكنوز العالمين

وكأني بالمترجم الفاضل، وقد رأى أن فلسفة شبنجلر ليست بالشيء الهين الذي يتناوله القارىء في يسر وسهولة، وأنها من العمق والأصالة بحيث تحتاج إلى مقدمة تقرب إلى الباحث مذهب شبنجلر ونظرياته الجريئة الجديدة، فوضع لهذا الكتاب مقدمة ضافية تعتبر كتاباً بذاته، سماها (النظرة المصرية) أتاح فيها للقارىء أن يلم بمذهب الرجل وأن يدركه إلى الحد الذي يسمح له بتذوق ما يقرأ وفهمه على الوجه الذي قصده شبنجلر

وقد ذكر في هذه المقدمة أن كثيراً من المعاني السامية قد ابتذلت في هذه الأيام، ومنها الفلسفة، التي أصبحت إما نقلاً أجوف لشتى المذاهب وفي مختلف الثقافات قديمها وحديثها، وهو نقل يقصي ما بينها وبين الأدراك السليم، ويجعل منها عبارات غامضة لا يتذوقها إلا طائفة محدودة تستأثر بها وبغوامضها، وإما لهواً ولعباً ينضم إلى سائر ضروب الشعوذة الأدبية التي ترمي إلى صرف النشاط الثقافي عن جوهر الأمور.

وإن هذا الذي يقوله الأستاذ الحاكم في مقدمته الرائعة ليذكرني بمحاضرته القيمة التي ألقاها عن شبنجلر قبل توزيع هذا الكتاب في قاعة المحاضرات بدار المركز الثقافي بالمنصورة وفيها بسط لنا معاني الفلسفة وقربها إلى أذهان المستمعين، وعرضها عرضاً مغرياً جذاباً خالياً من التعقيدات، والمعميات،

وقال عن شبنجلر إنه ليس من هؤلاء المتفلسفين الذين جعلوا من الفلسفة عبارات غامضة تستأثر بتذوقها طائفة محدودة، وأنه ليس بالناقل ولا باللاهي، وإنما هو مفكر أصيل جرىء حسن

شيئاً من ذلك، بل هم على العكس يذكرون ما لقوا هناك من تقدير وتكريم.

كل ما في الأمر أن وزارة الخارجية المصرية تلوح بهذا الموضوع في محادثاتها التي تتعلق بالشئون السياسية مع العراق... ووزارة المعارف ترى ذلك فتسكت، على سبيل التضامن السياسي.

والمأمول ألا يتعدى الأمر ذلك التلويح، فلا ينبغي للسياسة أن تتجاوز دائرتها إلى الشئون الثقافية، وخاصة أن ميثاق الجامعة العربية يكفل التعاون الثقافي بين البلاد العربية، وتنص المادة الثانية من المعاهدة الثقافية على أن « دول الجامعة توافق على تبادل المدرسين والأساتذة بين معاهدها العلمية بالشروط العامة والفردية التي يتفق عليها »

على أن ذلك التعاون الثقافي أقدم من جامعة الدول العربية، وآثاره ظاهرة في العلاقات التعليمية والأدبية الموطدة.

عباس خضر

وأفكاره عصارة دمه قبل أن تكون وليدة فكره ، ولذلك يبرزها عارية من كل ملطف، ويقذف بها في وجه العالم أجمع في صراحة مدهشة ، وشجاعة عجيبة قلبت كثيراً من أوضاع الفكر المقررة .

ومن أسس الفنون وسائر الإتجاهات العلمية والأدبية انكم من هيكل فكرى أو حكم راسخ حته القداسة مئات أو آلاف من السنين قد انهار تحت معوله القاسى ؛ وكفاك أنه حكم القضاء على المنطق المألوف – منطق العلية – فنزع سلطانه وأخذ بمنطقه الخاص الذى أسماه منطق الحياة .

ولقد أحسن الأستاذ الحاكم بك كل الإحسان حين كشف لنا فى مقدمته عن شخصية شبنجلر ؛ وحدثنا عنه حديثاً مفصلا أظهرنا على مذهبه وفلسفته ، واتجاهاته الفكريه ؛ فقرأنا كتابه ونحن نعلم تمام العلم أن الرجل قد جاوز حد الإعجاز فيما كتبه وفيما وجهه إلى الحضارة الأوربية من اللهات ، وأنه كشف لنا عن خفايا وأسرار هذه الحضارة وعوامل نهضتها واضمحلالها ودورانها المحتومة ، وأن تقديراته للمستقبل بلغت حد الروعة الفذه إذ أنه قدر الحرب الأخيرة قبل وقوعها وقدر نتائجها والساحة السياسية والحربية تقديراً عبقريا . وإننا لنقرأ اليوم ما كتبه منذ سبعة عشر عاما وكأننا نقرأ تصويراً للحاضر يستحيل على غير المعاصر أداؤه .

وأنا أعتقد أن الأستاذ الحاكم بك حين فكر فى ترجمة شبنجلر عن الألمانية نفسها، فإنما ترجمه وهو متأثر به ومعجب بأفكاره ومذهبه إلى حد بعيد بالرغم من أنه احتاط لنفسه وقال: إنه لا يسلم بكل ماراّه ، ولكن صراحته الألمانية الخشنة تفتح لنا فرجة إلى خفايا كلها فائدة وخير لنا .

ولذلك فقد أطال الكتابة عنه ، ولم يترك ناحية تتصل بهذا الفيلسوف عن قرب أو عن بعد إلا عرضها على القارىء عرضاً نموذجياً ناجحاً يحبب إليه إعتناق مذهب شبنجلر والتأثر به قبل قراءته

وهذا نوع عجيب من عبقرية القدرة على الدعاية للمذاهب الفلسفية التى يميل إليها الكاتب القدير .

ألا ترى أنه يصور لك آراء شبنجلر تصويراً بديعاً يملك عواطفك ويهز جوانحك ويتغلغل فى صميم نفسك حين يقول لك: (إنه يرى أن كل ألوان القياس والقضايا تستند فى النهاية إلى بدهيات هى فى ذاتها قضايا ؛ ولكنها قضايا مسلم بها لا تتسع لأن تبنى على قضايا أخرى . وهنا يتساءل : أليس كل التفكير إذن مرتكزاً على الإعتقاد ؟ وأليس كل ما تمارقنا عليه من نظريات وأسس علمية مهما تبلغ من الدقة مبنياً على مسلمات هى فى ذاتها عقائد ؟ وإن كان الفكر فى ذاته مبنياً على المسلمات والعقائد فما الفارق إذن بين التفكير والإعتقاد ؟

أليس هو فى الدرجة فحسب ؟ أى فى أن الفكر المألوف أبعد عن العقيدة الأساسية التى تطالعك مباشرة ، وبدون أدنى وسيط أو تساؤل ؟ وبهذا حول العلوم فى أسسها إلى عقائد وقال إن ما يأخذه العلماء على الدين إنما هو سهم مردود الى راميه .

وهكذا هدم العلية المألوفة وحصرها فى حيز ضيق واهتدى إلى أن وراء الحوادث ما يعلو على الأسباب السطحية ! وراءها منطق الحياة و الزمن ، ووراءها القضاء أو المصير بالمعنى الألمانى .

القضاء الذى يعلو على الفرد وعلى النوع وعلى الحياة ألوان النمو والتطور مما لا يمت بأى وشيجه إلى السببية ، فهو يعتنق جبرية من لون جديد تتصل بالجبرية الإسلامية وتختلف عنها ، تتصل بها من حيث الحتمية ، وخلوها من التدبير ، وتختلف عنها من حيث ردها إلى مقدر بصورته الفلسفية الألمانية ذلك القدر الذى تلعب فيه الارادة البشرية الفردية دورها . ومن العسير على غير من تذوق الثقافة الألمانية أن يتصور كيف تتسق صورة القدر مع فكرة إرادية ذاتية خارجة عن الروح الكونية)

وما كان اليسير على بك الحاكم الكاتب المسلم الفيلسوف أن يعلق على رأى شبنجلر مثل هذا التعليق ، وأن يوازن بين الجبرية الإسلامية والجبرية التى يعتنقها الفيلسوف الألمانى، ويبين الفوارق الدقيقة ووجوه الشبه بينهما بمثل التفصيل البديع الذى يعقب عليه بقوله : (ومهما يكن لون هذه الجبرية التى أتى بها شبنجلر فإنها مع غيرها من أركان مذهبه كانت معولا جباراً أصاب المادية الحديثة فى أرسخ جذورها وأفسح الطريق لضرب جديد من الروحانية ينظر إلى المرحلة الحضارية الحالية فى الغرب نظرة فيها لنا نحن الشرقيين رضا وتأس وبسط للامل فى المستقبل : فهو روحا أصيل قد نفذ ببصره الثاقب إلى ما وراء المادة واهتدى إلى أن الروح هى جوهر الأمور لا المظاهر المادية التى تلعب بالأحاسيس فتخدعها وتصرفها عن الحقيقة (الكافية)

النقـــاب

للاستاذ عبد الحميد جوده السحار

مما لا ريب فيه أن الأستاذ عبد الحميد جودة السحار فى طليعة أولئك الشباب الذين يجاهدون فى ميدان الأدب القصصى ليخلقوا للقصة المصرية مكانة مرموقة . وقد تفاوت النجاح الذى أصابه فى جهاده باختلاف أعماله القصصية الكثيرة . وإن كنت مقتنعاً أن روايته « فى قافلة الزمان » تعتبر قمة نجاحه القصصى .

أما قصته الجديدة « النقاب » فلا أستطيع أن أصفها فى مصاف الأعمال القصصية الرائعة ، ولكنها قصة ناجحة ما فى ذلك شك . وقد عالج فيها موضوعاً يتغلغل فى صميم النظام الاجتماعى السائد ، تناوله غيره من الكتاب بالبحث والدراسة ، ولكنه أبدع فيه بما أضفى على القصة من جو نفسى رائع .

وتدور القصة حول شاب فى العشرين من عمره ينتمى إلى أسرة فقيرة ، وله إبنة عم ثرية ، تواضعت أسرتها على اعتبارها خطيبة له منذ صغرهما . ولما كبر ظل كل منهما يحس الحب لصاحبه ، فكلما لاح خيال « علية » فى خاطر « حسين » أحس بقلبه يهفو نحوها وبمشاعره تنصرف إليها . وكلما التقى « حسين » بـ « علية » فضحت عيناها ما تنطوى عليه جوانحها من وجد وهيام .

ودارت عجلة الأيام ، وأشرف حسين على التخرج من كليته — كلية البوليس الملكية — فأخذ ينتابه شعور غريب كلما جمعه مجلس بعلية . شعور مزيج من الضعة والهوان ، والضيق والاشمئزاز . ولم يكن يفقه لهذا الشعور سبباً ، بل كان يرغب رغبة صادقة فى التحرر من ربقته . فقد كانت العناية التى يلقاها فى بيت عمه ، والمحبة التى يغمره بها أعضاء الأسرة من صغيرهم إلى كبيرهم ، حرية بافتراع عواطف الحب من قلبه . ومبادلة الأسرة العطوفة ودا بود ، ومقاسمة علية مشاعرها الصادقة . ومع ذلك فقد ظل خيال علية يراوده فى أحلامه ويثير فى قلبه العواطف المتقدة . وتفاقم نفوره من علية ، وتأججت بين جوانحه ثورة على القدر المسطور له فى كتاب الزواج ، فلماذا يتخذ من علية زوجة له نزولا على إرادة أبيه وعمه بينما أحت صورتها من قلبه ؟ !

ثم ألقى نفسه ينجرف فى حب فتاة ألتقى بها فى بيت عمه ، وإذا بها تستحوذ على مشاعره ، وتحتل تفكيره وعلاً فؤاده . وأحس بشعور الغريق الذى عثر على حبل الإنقاذ أخيراً ، أو إحساس التائه الذى اهتدى بعد لأى إلى السبيل . ورغم معارضة أبيه العنيفة فقد أصر على الزواج منها ، وفضل مخاصمة أبيه على الاقتران بابنة عمه علية .

تزوج حسين من الفتاة التى اختارها بنفسه ، ورحل إلى الإسكندرية لاستلام مهام منصبه الجديد بعد تخرجه من كلية البوليس . وعاش فترة من الزمن تزيد على الثلاثين وهو يحاول إقناع نفسه بأنه مستمتع بالسعادة الحقة إلى جانب زوجته ، وقد نجح فى محاولته إلى حد بعيد ، ولكن القناع سقط عن عاطفته الزيفة عندما أخبرته زوجته ذات يوم أن علية زارت المنزل فى غيابه وسألت عنه ملحة فى رؤيته . فجرى إلى شاطىء البحر يتفقد الموضع الذى اعتادت أن تتخذ منه كل صيف مستقراً ، وما وقعت عليها أنظاره حتى أحس بلهيب العاطفة يضرم جسده ، وبجمرات الحب تتقد بين جوانبه ، ودب الوهن فى عزيمته واجتاحته حيرة مضنية بين التقدم إليها أو التوارى عن أنظارها ، ثم لم يلبث أن تراجع بخطوات متلصصة حذراً من أن تكشفه عيناها ، وقفل راجعاً والخيبة والمرارة تقتسمان مشاعره .

مرت الأيام وعلاقة حسين بزوجته على خير ما يرام صفاء ، إلى أن وجد نفسه فى صباح يوم من الأيام أمام خطاب غفل من التوقيع يتحدث عن ماضى زوجته الحافل . ومنذ ذلك الصباح نبتت زهور الشك فى قلبه ، ومنذ ذلك الصباح تتالت الخطابات المغفلة من التوقيع تكشف النقاب عن ماضى الزوجة وتسقى زهور الشك بماء الغيرة حتى أينعت وحان قطافها ، فكان الطلاق .

وأحس حسين حينما انتهت علاقته بزوجته كأنه يستيقظ من حلم مريع ، أو كأن كابوساً هائلا يرتفع عن صدره وداعبه شوق ملح لرؤيته علية . وطفق يستعيد فى ذهنه صورتها ، ويستعرض مشاهد حياتهما الماضية فيعجب كيف انصرف عنها إلى هدى ،

هذا هو شبنجلر كما يصوره لنا أستاذنا الجليل على بك الهاكم فى مقدمته بعبارته الخلابة ، ومنطقه الصحيح ، وذوقه السليم

أما شبنجلر حين يصور نفسه فى كتابه « الأعوام الحاسمة » فلى فيه كلمة أخرى أرجو أن أوفق فى كتابتها إن شاء الله .

المنصورة على عبد الله

وكيف شاغل الإحساس بالنفور منها لحظة من الزمن وهي تكن له كل هذا الحب. واستقل الرام في شوق ولهفة إلى « الزمالك » ونزل مسرعاً صوب منزل عمه، ودفع باب الحديقة. ومشى بخطوات متلكئة نحو الباب الكبير، وما أن ارتقى آخر درجة من درجات السلم حتى خارت عزيمته، وإذا به يولي ظهره شطر الباب ويطلق العنان لقدميه هارباً من المنزل.

وهكذا تنتهي قصة « النقاب » وإن لم تحل العقدة النفسية التي ظل حسين يقاسي متاعبها ويتخبط بسببها في مسارب الحياة، وهي لن تحل بالطبع إلا حين تنتهي قصة الصراع الطبقي التي نقاس جميعاً عقدها ومآسيها ومشاكلها. فنحن نرى إذن أن حسين قد أخطأ الطريق إلى قلبه، ومهما يقل عن وضوح هذا الطريق فلا يسعنا إلا أن نلتمس له العذر في هذا الخطأ، فتلك هي قصة المجتمع ذي الفروق الطبقية الشاسعة، كما عالجها الأستاذ السحار من زاويته الخاصة.

وقد كان أسلوب الأستاذ السحار المتميز بالسلاسة والصفاء، سلاسة الينبوع المتدفق، وصفاء البحيرة الساكنة، واضحاً متميزاً في هذا الكتاب. ولكنه لم يكن في الحوار على عهدنا به، إذ كان حوار القصة على ما يلوح لي أضعف ما فيها. ويبدو أن أبطال قصته جميعاً مؤمنون بفضيلة « خير الكلام ما قل ودل » إذ كان حوارهم مقتضباً دائماً. وهذا مثال صادق لحوار القصة: (وقعد في فراشه يرقبها وهي تتزين ثم قال: — بدأت أغار. — مم؟! من المرآة. — لم تفدك نصيحة أبي. — أفادتني. لفتت نظري إلى ما كنت في حاجة إلى سنين لأكتشفه وحدي. — جعلتك تغار قبل الأوان. من هذا عيب النصائح، توقظ في نفوسنا ما كان نائماً. — لن أنصحك أبداً. — إنصحيني أن أسارع بارتداء ثيابي، فقد حان وقت خروجنا. — لن نخرج معاً. — ولماذا كل هذه الزينة إذا كنا لا نخرج الليلة؟. — ستخرج وحدك — وأنت؟ — عندي ميعاد. — أين؟ — هنا. — مع من؟ — أناس يجب ألا تراهم. — قولي من؟ — أصدقاء.)

ويخيل إلى أن هذا الحوار — إلى جانب تكلف الاقتضاب فيه — في حاجة إلى قبس من الحرارة أيضاً لتدب فيه الحياة.

ولا بد للناقد أن يعجب بسيطرة الأستاذ السحار على الجو النفسي في القصة رغم أنه الصراع النفسي فيها هو كل شيء. فبطل القصة — حسين — حائر بين مشاعر قلبه الملهمة التي تدفعه بيد خفية إلى الاتجاه نحو ابنة عمه، وبين مشاعر الأنفة والعزة التي توحي إليه أن علية لا تصلح شريكة لحياته لأنها من أسرة تبذ أسرته بالثروة والغنى، وعمود أفندي — والد حسين — حائر بين الموافقة على زواج ولده من هدى لتحقيق سعادته، وهو ما يهدد علاقته بأخيه بالدمار، وبين حمله على الإقتران بابنة عمه وتحطيم فؤاده، وفي هذا صيانة للأواصر بينه وبين أخيه. وهدى حائرة بين أن تفضي لزوجها بسر ماضيها أو أن تكتم عنه كل شيء وتسلم الأمر بين يدي المقادير.

وهكذا تجد كل شخصية من شخصيات القصة مسرحاً للصراع النفسي العنيف. ولكن الرام لم يفت من فم المؤلف في تلك المواقف جميعها.

والأستاذ السحار لمسات إنسانية رائعة في هذه القصة، ويحضرني بهذه المناسبة حديث جرى بين الصديق الأستاذ أنور المعداوي وبيني في صدد الحديث عن هذا الكاتب ومن الأستاذ نجيب محفوظ. فقال المعداوي ان نجيب محفوظ أعمق خبرة بالحياة من عبد الحميد السحار، ولكن السحار أكثر إقبالاً وتفاؤلا منه بالحياة. وقد وافقته على هذا القول، وأظنه حقيقة بينة، فما لا ريب فيه أن الأستاذ نجيب محفوظ أعمق كتاب الشباب خبرة بالحياة، بل لا أظنني مغالياً إن قلت إنه أعمق كتاب القصة العربية خبرة بالحياة. وهذه رواياته تثير دهشتك في عمق كاتبها وقوة فلسفته وفهمه الحياة فهماً حقاً. أما الأستاذ السحار فإنه ولا شك من أكثر الكتاب المصريين تذوقاً للحياة العائلية ولململ باستطاعتنا أن نجد وجهاً للشبه في هذه الناحية بينه وبين الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني. ويوسعنا أن نلحظ تلك اللمسات الإنسانية التي يتجلى فيها تذوق الأستاذ السحار للحياة في قصة النقاب في مواقف كثيرة، وأخصها تلك المواقف التي تجمع بين الوالد وولده والأم وابنها والزوج وزوجته، والقصة بعد مليئة بمثل هذه المواقف.

وإذا غفرت للأستاذ السحار أن يزجني في موقف إنساني ويلمس أوتار قلبي، ثم ينتزعني منه على غرة قبل أن أرتوي من الإستمتاع به — كما حدث في عدة مواقف من القصة — فلن